Studies in Spirituality - Weekly Torah Portions by Rabbi Lord Jonathan Sacks zt"l

في رِحاب التّوراة

دِراساتٌ وحِواراتٌ روحانيّة مُعمّقة في النّصوصِ التّوراتيّة الأسبوعيّة مع الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY

The Original text in English and translations to other languages can be found here:
Covenant & Conversation | Shemot | Turning Curses into Blessings | The Rabbi Sacks Legacy

"شموت" هو النصّ الأسبوعي الأوّل من كتاب "شموت" (سِفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المَقطع الأول وينتهي بالآية الأولى من المقطع السادس

كيفَ تَتَحَوّلُ النِّقمةُ إلى نِعمة

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

يختتِمُ سِفر التكوين فصولهُ ومقاطِعه بنهايةٍ تَطغى عليها مَلامحُ الهُدوءِ إلى حدٍ ما، فها هو يَعقوف/ يعقوبُ يعثُرُ أخيراً على ابنه المَفقود، فالْتَأمَ شَملُ العائِلَةِ مِن جَديد. كما صَفَح يوسفُ عن إخوته، وعاش أبناءُ العائلة في كنفِه وتحت حمايته بمنطقة غوشان التي كانَت واحدة من أكثر أراضي مِصر ازدهاراً آنذاك، فأصبَحَوا يمتلكون المنازِلَ والأملاكَ والطعامَ ويتمتّعون برغد العيش الهَنيء بحماية أخيهم يوسف في ظلّ عرشِ فرعون. في الحقيقة، تَبدو هذه الحُقبة من حياة أبناءِ أفْرهام/إبراهيم وكأنها إحدى الفَترات الذهبية التي عاشتها عائلة أفْرهام عبرَ تاريخها.

لكن سُرعان ما تتبدّل الأحوالُ مثلما يحدثُ عادةً، فتُخبرنا التوراة في الآية الثامنة من المقطع الأول من سفر الخروج بالتالي **"وقامَ ملكٌ جديدٌ على مِصرَ لَم يُشاهِد يوسفَ"**. وهُنا تنقلِبُ الأمور رأساً على عقب نتيجة لتغيّر المُناخ السّياسي ووصول ملك فرعوني جديد إلى عَرشِ مِصر آنذاك، بالتالي خرجَت العائلةُ الإبراهيمية من كنفِ العائلة الحاكمة، وهُنا يقول الفرعون الجديدُ لمُستشاريه: **"فقالَ لِقومِه، هُم ذا قومُ يسرائيلَ أكثرُ وأعظمُ مِنّا"**[1] وهنا يستعمل اللقب "قوم" للمرة الأولى في التوراة لوصفِ لبني يسرائيل. **"تعالوا نَحتالُ لَهُم فَلا يكثُرون، ويَكونُ إذا وافينا الحربَ، انضافوا هُم أيضاً على أعدائِنا فيُحاربونا ويُهرِّبونا من البلادِ"** تبعاً لما تُخبرنا به الآيات التاسعة والعاشرة من نفس المقطع. وبتلك الكلمات يبدأ عصرُ الظُلم الذي سيُلقي بظلاله على حياة بَني يسرائيل في مصر: فالسُخرةُ تتحوّل إلى عبوديّة، والعبودية تتحوّل لاحِقاً إلى محاولة للإبادة الجماعية.

إن هذه القصّة محفورة في ذاكرتنا اليهودية ويتناقلُها جيلٌ بعد الآخر حين يرويها الآباء للأبناء كل عام، كما أننا نُردّدُها بشكل مُختصرٍ يومياً من خلال صلواتنا، لأن هذه القصة هي جُزءٌ من كونِك يهودياً. لكن توجدُ عبارة واحدة تُشِعّ بِبريقِ سِحرها من بين ثنايا هذه القِصّة: **"وكانَ كُلّما عذّبوهُم، كانوا يَكثُرونَ وييسّرون"** مثلما تذكرُ الآية الثانية عشرة من نفس المَقطع ونفس السفر. بِعبارة أُخرى، كُلّما تعرّضَ اليهود للظُلم والعذاب، كُلما تشبّثوا أكثرَ بديانتهم اليهودية، وهذا الظُلم

جُزءٌ من معنى أن يكونَ المرءُ يهودياً، ذلك إذ كُلّما تعرّضَ اليهودُ للظُلم والأسى، كُلّما ازدادوا قوّةً وعُنفواناً، لأن اليَهودَ قومٌ لا يصبِرون على الشدائد فحَسب، بل يزدهرون وتزداد شوكتهُم أثناءها.

في الوقت نفسه، فإن التاريخ اليهودي لا يُمكنُ اختزاله في صَبرِ اليهود على الظُّلم والمصائبِ ونجاتهم منها فقط (تلك المصائب الكفيلة بأن تَفتِك بأقوامٍ وشعوب أُخرى)، بل يتضمّنُ هذا التاريخُ أيضاً بِناء اليهود لأنفسهم ووقوفهم على أرجلهم مِن جديد، فمَع كُل ظُلم يحلّ بهِم يكتشفون أن لديهِم مَخزوناً من القوّة الروحانيّة الكفيلة بتجديد أشكال التعبير عن تجربتهم الجماعيّة، باعتبارهم قوماً يحمِلون الرّسالة الإلهيّة إلى العالم بأسره.

كما أن التاريخ اليهوديّ حافِلٌ بالمآسي التي خلّفَت وراءها أشكالاً جديدة من الإبداع، فعلى سبيل المثال جاء أعظم رُسُلِ اليهودِ فصاحةً وبلاغةً عقِب انقسام مملكة سُليمان بعد وفاته، وأقصدُ هُنا رُسُل الله عاموس وهُوشَع وبِشعياهو /إشعياء وبِرمياهو/ إرمياء. وعَقِب الخراب الأوّل الذي تعرّضَ له الهيكل اليهوديّ المُقدّس وما تَلاه من سبيّ بابليّ لليهود، جاء عصرُ إحياء التّوراة لتَكون جُزءاً من حياة الشعب اليهوديّ بأكمله، وذلكَ بمساعي النّبي يحزقئيل/حزقيال (أو حسقيل) وعِزرا ونحميا التي تكلّلت بإنشاء منظومة دراسية مُتكاملة لدراسة التوراة في المدارس الدينية اليهودية. وعقِب الخراب الثاني الذي تعرّض له الهيكل، ظهرَ الأدب الحاخاميّ اليهوديّ الذي انتقل شفهياً من جيل لآخر، والذي تم تدوينه لاحقاً في كُتُب المِشناه وتفاسير المِدراش* والجمارا.

والحال نفسه عَقِب حُكم الصليبيين، فمن ثنايا ظُلمهم انبثقَت مدرسةٌ صَلاحيّة روحانيّة للفِكر اليهودي الأشكنازيّ الحسيديّ** في شمال أوروبا، وعَقِبَ انتشار محاكم التفتيش الإسبانية انبثقَت حلقات الدراسة الصوفيّة اليهوديّة التي تميّزت بِشعرها وأناشيدها وصلواتها في منطقة صفد، والتي كان يُطلق عليها حلقات القبالة اللوريانيّة نِسبة إلى مؤسسها الحاخام يتسحَق/إسحَق لوري. وعَقِبَ الفَقر المدقِع والظلم والاضطهاد الذي تعرّض له يهودُ شرق أوروبا انبثقَت حركة حَسيديّة ضخّت الدماء في عُروق الحياة الروحانية اليهودية من جديد عبر الشّعرِ والإنشادِ والغناء. وعقِب المحرقة التي تعدّ واحدة من أفظع المآسي التي عرفتها الإنسانية بأكملها، وُلِدَت دولة يسرائيل التي تُجسّدُ في وجودها أعظم إثباتٍ على الهويّة اليهودية الجماعية بعد مضيّ أكثر من ألفي سنة على نَفي اليَهود وشتاتهم من هذه الأرض.

في الوقت نفسه، فإنه من المعروف أن كلمة "أزمة" في اللغة الصينيّة يُقابلها رسمٌ رمزي يَعني أيضا "الفُرصة". لهذا فإن أي حضارة بشرية باستطاعتها رؤيّة النّعمة الموجودة بين ثنايا النّقمة، ورؤية بَصيص النّور بين ثنايا الظَلام الدامس، بإمكانها البقاءُ واجتياز الأزمة ومصائب الدّهر.

أما اللغة العبرية فتوضّح هذه الفكرة بطريقة أفضل بكثير، فكلمة أزمة أو مصيبة في اللغة العبرية هي "مَشبير"، لكنها في الوقت نفسه تحملُ معنىً آخَر: "كُرسيّ الوِلادة"، بحيثُ توجدُ دلالةٌ معنويّة محفورة في الوَعي اليهوديّ مضمونها بأن الألم الذي يتمخضُ عن الشدائد والمصائب هو شكلٌ من أشكال الألم الجَماعي الذي لا يختلفُ في مقداره ونوعيته عن الألم الذي تشعرُ به المرأة خلال مخاضِ الوِلادة. هنالك شيءٌ جديدٌ سيرى النّور، هذه هي الفكرة التي تنطلقُ منها عقليّة اليهودِ الذين **"وكانَ كُلّما عذّبوهُم، كانوا يَكثُرونَ ويَيسّرون"**.

*** مُلاحظة توضيحية من المترجم:** المِدراش هو مصطلحٌ يُشيرُ إلى التفاسيرُ اليهودية المُوسّعة للكتاب اليهوديّ المُقدس (التناخ)، بحيث تستندُ هذه التفاسير إلى نمطٍ حاخاميّ شائع الاستخدام في كتاب التلمود (التلمودُ هو النصّ المركزيّ في الحاخامية اليهودية ويعدّ المصدر الأساسي للديانة اليهودية وللشريعة اليهودية المعروفة باسم الهلاخاه). ومن ناحية لغويّة فإن كلمة مِدراش تَعني تفسيرَ النصّ بالنّص، كما تعني أيضاً الدّراسة، وهي مُشتقة من الجذر "دَ.ر.ش" في اللغة العبرية، والذي يحمل في طيّاته أكثر من معنى، منها البحث المُتأنّي والاستفسار والطلبُ، وتظهرُ اشتقاقاتُ كثيرة لهذا الفعل على نحو مُتكرر في الكتاب اليهودي المُقدس. كما أن التفاسير المِدراشية والقراءات الحاخامية للنصوص الدينية تهدفُ إلى البحثِ عن القيمة الموجودة في النصوص والكلمات والحروف أيضاً، وهي تعتمدُ التفاسير المِدراشية على أسلوب طرح الأسئلة حول النص الديني، وفي بعض الأحيان تُجيبُ على تلك الأسئلة، وفي أحيان أخرى تتركُ المجال مَفتوحاً أمام القارئ ليُجيب عنها بنفسه. والتفسيرُ المدراشي يُعد نهجاً يهودياً مُميزاً، فهو لا يُحاول فهمَ الكلمات الموجودة في النصّ الديني وما وراءه من أفكار فحسب، بل يذهب بعيداً ليتطرّقُ إلى ما هو غيرُ موجودٍ في الآية، أيّ كل حرف وكل كلمة لم تُذكر في هذا النصّ. إن الأسلوب المدراشي يتضمّنُ تفسيراتٍ قديمة للتوراة المكتوبة والشفهية (القوانين والمناسك الدينية التي انتقلت بالمشافهة)، بالإضافة إلى الكتابات الحاخامية التي لا تتمحور حول القوانين (أغاداه) أو التشريعات الدينية اليهودية (الهلاخاه) التي تجسّدُ بالعادة تفسيراً مُكتملاً لتفسير نصوصٍ معيّنة من الكتاب اليهوديّ المُقدس (التّناخ).

** **ملاحظة توضيحية من المترجم**: هذه الحركة الحسيدية الأشكنازية ليست الحركة الحسيدية المعروفة حالياً والتي ظهرت لاحقاً على يد الحاخام بَعل شِمتوف. والحركة الحسيدية الأشكنازية هي حركة تصوّفية تدعو إلى الزهد وظهرت في أرض ألمانيا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد.

والسؤال الذي يطرحُ نفسهُ هُنا: ما هو سرّ قُدرة اليهودِ على تحويل الضعف إلى قوّة، والنّقَمِ إلى نِعَم، والظلام إلى نور؟ في الحقيقة يرجعُ سرّ هذه القُدرة إلى اللحظة التي تحوّل فيها اسم يَعقوف إلى "يسرائيل"، تلكّ اللحظة التي واجهَ فيها ملاكَ الله وحيداً في ظُلمة الليل الحالِك، ومع بزوغ فجر تلك الليلة توسّلَ الملاكُ إلى يَعقوف طالباً منه أن يُطلق سراحه، فقال له يَعقوف: **"فلمّا طلعَ الفجرُ قال أطلِقني، لقد طلعَ الفجرُ، قالَ لا أُطلِقُك دونَ تُبارِكَني"** تبعاً للآية السادسة والعشرين من المقطع الثاني والثلاثين في سفر التكوين.

لقد كانَت المواجهةُ بينهما مصدراً لِصلابةِ اليهودِ واستعصائِهم على أن يُكسروا أو أن يُهزموا، وهُنا يكمنُ السرّ: ربّما نكونُ مُرهَقين مُنهَكين لدرجة أننا نمضي قُدُماً في الحياة مُترنّحينَ تماماً كما كان يَعقوف يترنّحُ ويعرجُ بعد صراعِه مع الملاك، لكننا لن نتركَ خصومَنا قبل أن ننتَزِعَ منهُم بركةً أو نِعمةً ما، ولاحِقاً ستُصبح هذه واحدة من المُسَلّماتِ الدائمة التي تعبرُ عن أحد الأسس التي تقوم عليها الهويّة اليهوديّة، ومنها اكتسبوا اسمهم: شعبُ يسرائيل، الشعبُ الذي **"لا يُسمّى اسمُكَ يعقوبُ أبداً، بَل يِسرائيل، لأنّك تصارعت مع اللهِ ومع النّاسِ وطِقتَ ذلك"** تبعاً لما تذكره الآية الثامنة والعشرون من نفس المقطع. إنهم باختصار قومٌ يزدادونَ قُوّة وعُنفواناً عقب كلّ صراعٍ يخوضُونه وعقب كل مأساة يمرّون بها.

وفي هذا السياق، ذكّرتني إحدى المقالات التي قرأتها والمنشورة في الصحافة البريطانية في شهر أكتوبر/تشرين الأول عام 2015م بهذه الميّزة الاستثنائيّة التي يتحلّى بها اليَهود، فخِلال تلك الفترة كانت دولةُ يسرائيل تتعرّضُ لموجةٍ عارمةٍ من الهجمات الإرهابية، حين كان الفلسطينيون يقتلون المدنيين الإسرائيليين الأبرياء ويعتدون عليهم في الشوارع ومواقف الحافلات في شتى أنحاء البلاد، فتبدأ المقالة بالعبارات التالية: "يسرائيلُ دولةٌ مُذهلة بالفعل، دولة مُفعمة بالحيويّة والنشاط، إنها كالمغناطيس الذي يجذبُ الموهبة والاستثمار: إنها باختصار حاضنةٌ للإبداع". ثم أتت المقالة على ذكر تفوّق يسرائيل على مستوى العالم في مجالات عديدة منها الفضاء والطاقة النظيفة وأنظمة الريّ والزراعة المتطوّرة والبرمجة والأمن الإلكتروني ومجال الأدوية والصيدلة، هذا عدا عن أنظمة الحماية والدّفاع [2]. ويتابع كاتب المقال حديثه عن دولة يسرائيل قائلاً: "جميع هذه الإنجازات جاءت بفضل قوّة العقليّة الإسرائيلية، فهي دولة لا تمتلكُ الثروات الطبيعية، وهي في الوقت نفسه مُحاطةٌ بالدول المُعادية لها من كل حدٍ وصوب. إن هذه الدولة هيَ مثالٌ حيّ على قوّة التعليم التكنولوجيّ والهِجرة والمهاجرين، والمنافِع التي يجنيها نظام الخِدمة العسكريّة الفعّال والمناسب". في الحقيقة، فإن الإنجازات اليهوديّة لا تقتصرُ على هذه المجالات فحسب، فاليهودُ شعبٌ له باعٌ طويلٌ في تحقيق الإنجازات أينما حَلّوا وفي أي وقتٍ منِحوا الفرصة لذلك.

وبالعودة إلى المقالة، يُتابع الكاتب تفسيراته للأسباب التي تقفُ خلف تلك الإنجازات اليهوديّة العظيمة قائلاً: "إنّ ترابطَ وقوّة العائلة اليهودية، وشغف اليهود وحُبّهم للتعليم، ورغبتهم في الاستقلالية والمُخاطرة كأسلوب حياة في الوقت الحاضر بل وعبر التاريخ، جميعها أسباب تقفُ خلف تلك الإنجازات العظيمة. لقد كانت منطقة بلاد الشام موطناً لِأولى الحضارات البشرية التي مارست مهنة الزراعة والتجارة، وربما كان ذلك بمثابة البذرة التي غُرِسَت في الجينات اليهوديّة منذ ذلك الحين".

وفي نهاية المقالة عَزى الكاتبُ الأسبابَ التي تقف خلف تلك الإنجازات إلى ثقافة اليهود وطبيعةِ مجتمعاتهم، وفِعلاً هنالك جانبٌ مُحدد من الجوانب الرئيسية للثقافة اليهودية يتعلق بهذا الأمر: إنه الردّ اليهوديّ على الأزمات والمصاعب وطريقة تعاملهم معها، فمن يحملُ بين ثناياه عواطف يَعقوف سيكون ردّه على كل مصيبة تحلّ به هو الآتي: **"لا أُطلِقُك دونَ أن تُبارِكَني"**. لقد كان هذا تماماً حال اليهود حين جاؤوا إلى أرض يسرائيل ورأوا أرض النقب الصحراوية الجرداء القاحلة، فما كان منهم إلا أن بدأوا بابتكار الوسائل التي من شأنها أن تجعل الصحراء أرضاً خضراءَ مُزدهرة، وبدأوا بِتشجير الأرض لتنموَ وتمتدّ الغابات فيها بالشكل الذي نراهُ في وقتنا الحالي.

والحال نفسه فيما يتعلق بمواجهة جيوش أعدائِها الذين يحيطون بها من كل حدٍ وصوب، حيث طوّر اليهودُ أشكالاً مختلفة من وسائل التكنولوجيا العسكرية المتقدمة والتي شكّلت رادعاً لتلك الجيوش، الأمر الذي أدى إلى سيادة نوعٍ من السلام والاستقرار. كما أن الحروب والهجمات الإرهابية التي كانت تتعرض لها يسرائيلُ أجبرَت الكوادر الطبية الإسرائيلية على تطوير أساليب ومهارات متفوّقة جداً على مستوى العالم للتعامل مع القضايا النّفسية المتعلقة بالصّدمة ومرحلة ما بعد الصدمة.

بالتالي وجدَ اليهودُ وسيلةً لِتَحويل النِّقمةِ إلى نِعمة، وهذا ما وصفهُ المؤرّخ بول جونسون بأسلوبٍ رائعٍ جداً حين قال:

"لقد أثبتَ اليهودُ جدارتَهم خلال تاريخهم الممتدّ لأكثر من أربعة آلاف عام، ولم يُثبتوا تلك الجدارة في البقاء على قيد الحياة رغم ما حلّ بهم من مآسي فحسب، بل أثبتوا جدارتهم أيضاً في قُدرتهم الاستثنائية على التأقلم مع مُختلف المُجتمعات التي رماهُم فيها القَدَر، بالإضافة إلى قُدرتهم على الاستفادة حتى من أقلّ الموارد التي أتاحَتها لهُم المُجتمعاتُ البشرية. في الحقيقة لا يوجدُ شعبٌ آخر استطاع أن يُحول الفقر إلى غنىً أو أن يكون مُنتجاً أو مُستغلاً للموارد والثروات بشكل يفيدُ البشريّة جمعاء مثل اليهود، ولا يوجدُ شعبٌ آخرُ مثلهُم نجح في تحويل مصائب الدّهرِ إلى سببٍ للابتكارٍ والإبداع". [3]

في الواقع، يوجدُ بُعدان أحدُهما روحانيٌّ والآخرُ عمليٌّ في مقدرة اليَهودِ على تحويل لحظاتِ الأسى والتّعاسة إلى لحظات ابتكارٍ وإبداع، حيثُ يبدو الأمرُ وكأنّ صوتاً من داخل أعماقنا يُخاطبنا قائلاً: "هذه الظروف المريرة العصيبةُ التي تمرّ بِها تَعني وجودَ مُهمّةٍ ينبغي عليك إنجازُها، ومهارة ينبغي عليك اكتِسابُها، وقوّة ينبغي عليكَ تطويرها، ودرس ينبغي عليكَ تعلّمه، وشرّ عليكَ التخلّصُ مِنه، ونور عليكَ إفساحُ المجال له حتى ينطلق، ونِعمة ينبغي عليكَ اكتشافُها، لهذا اخترتُكُم يا بَني يسرائيل لتكونوا شاهداً حيّاً يُثبتُ للبشرية جَمعاء أنه بإمكان النّقمة أن تتحوّل إلى نِعمةٍ عظيمة إذا كافَحتُم من أجل ذلك بعقيدة وإيمان راسخين".

وفي هذا العصر الذي يرتكب فيه البعضُ جرائم عُنف دمويّة باسم الله عز وجلّ، إله الرَحمة، فإن بني يسرائيل ظلّوا شاهِداً على أن مثل هذه الأعمال بعيدة كل البعد عن الطريق المؤدّي إلى الله عز وجل، وأن هذا ليسَ منهج أقرهام للوصول إلى الله، إلهنا وإلهُ الحياةِ المُقدّسة. وحينما نشعرُ بالضعف أمام الظروف العصيبة التي نمرّ بها، مُتسائلين متى ستنتهي هذه الظروف، ينبغي علينا أن نتذكر هذه الكلمات: "**وكانَ كُلّما عذّبوهُم، كانوا يَكثُرونَ ويَيسّرون**". إننا قومٌ قد يصفهُم البعضُ بأنهم مُنهكون او مُرهقون أحياناً، لكننا شعبٌ لن يُهزمَ أبداً، لأن طَريق اللهِ عز وجلّ هو الطريقُ الصحيح للحياة.

---

1. لأول مرة في التاريخ المُعاصر يظهر تلميح يشبه في محتواه الكتاب الروسي المزيّف "بروتوكولات حكماء صهيون". اتّسمت حياة اليهود في الشتات بالضعف، لكن دوماً كان يُنظرُ إليهم على أنهم أصحابُ النفوذ والسلطة. وعند ترجمة هذا الأمر يُصبح السؤال كالتالي: كيف تمكّن اليهود من تجاوز حالة النبذ التي وُصِفوا بها؟

2. المصدر: Luke Johnson, "Animal Spirits: Israel and Its Tribe of Risk-Taking Entrepreneurs",
Sunday Times, October 4, 2015

3. المصدر: Paul Johnson, The History of the Jews (London: Weidenfeld and Nicolson, 1987), 58.

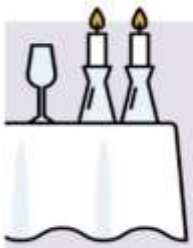

حَولَ مائِدةِ يومِ السّبتِ المُقَدَّسِ: أَسئِلةٌ لِلتَّأَمُّلِ

1- أذكر أمثلة من التاريخ اليهودي توضح قدرة اليهود على المضي قدماً بعد كل مأساة أو بَلاء حلّ بهم؟
2- باعتقادك لماذا تقود المَصائب والمآسي إلى الإبداع؟
3- هل سبق لك وأن خضت غمار تجربة مماثلة في حياتك؟ هل شهِدت تجربة مماثلة في حياة أشخاص تعرفهم؟

● These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at **https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/shemot/turning-curses-into-blessings/**

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism*, *Bar Ilan University*